الملحق

ثقافية . فنية . فلسطينية تحرير وإخراج فني: سليم البيك الملحق «دفاعاً عن حضوره» آب - أغسطس/ ٢٠١١

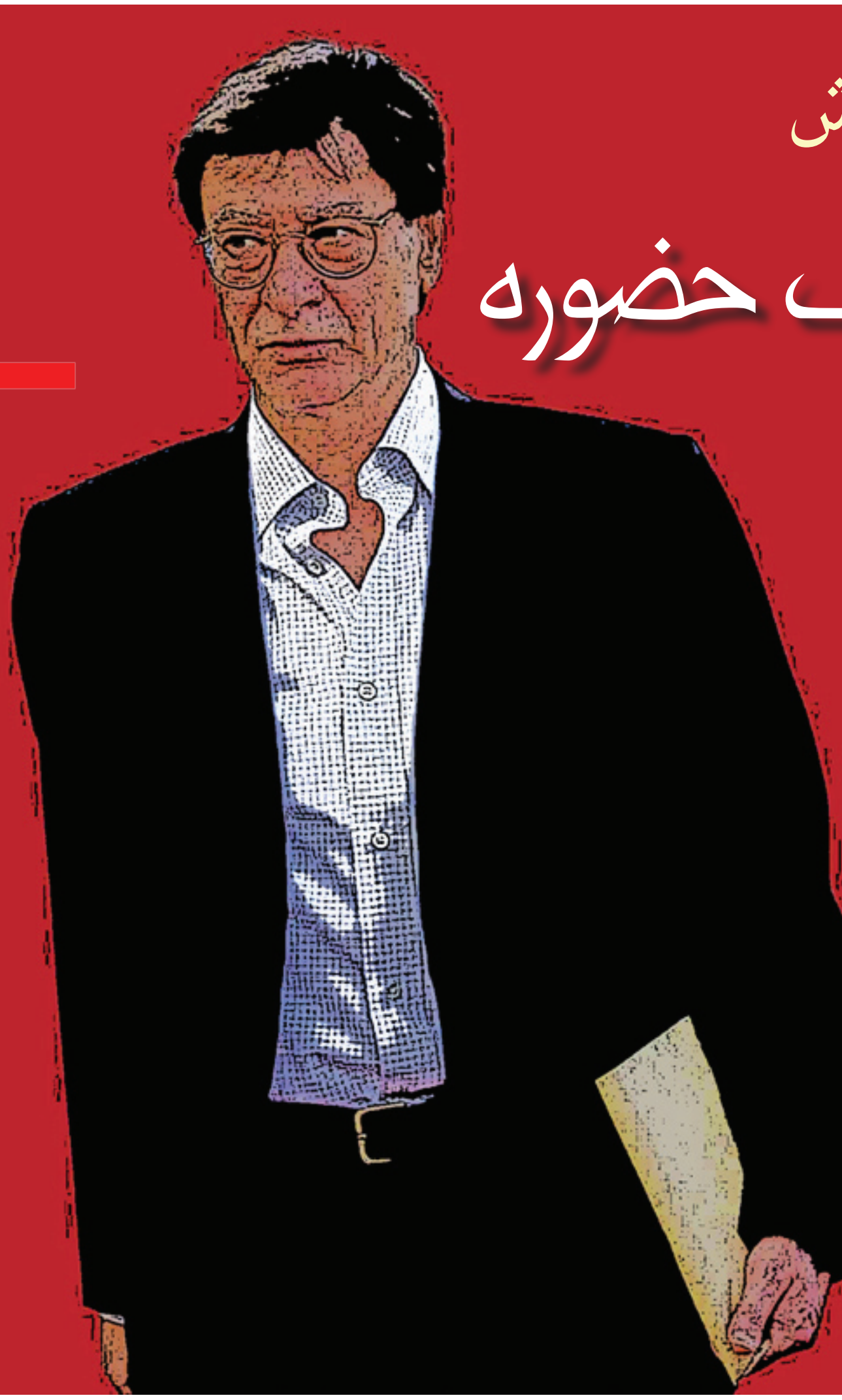

محمود درويش

دفاعاً عن حضوره

- أمجد ناصر
- صبحي حديدي
- حسن خضر
- سميح شبيب
- وليد أبو بكر
- توفيق وصفي
- حسن البطل
- رائد الدبس
- راسم المدهون
- هاني المصري
- يوسف ضمرة
- سليم البيك

الافتتاحية

وليس تقديساً

نعم، هو دفاعٌ عن درويش ولكنه، كذلك، ليس تقديساً ولا أيقنة للشاعر. إن كان لا بدّ من بداية كهذه سأقول بأن من حق الشاعر ومن حقّ قرّائه ومن حق الشعر ومن حق القضية التي ارتبط اسم درويش بها على النقّاد، أن يُكتب نقد يكون أبعد ما يكون عن تكريس فعل الأيقنة ويكون صادقاً مع كل أصحاب الحقوق المذكورين.

لكن ليس في مسلسل "في حضرة الغياب" أي نقد لدرويش، المسلسل مهزلة وليس فعلاً نقدياً. هو استخفاف بـ وانتهاز لـ وتسلّق وسطو على أحد أهم الرموز الوطنية فلسطينياً والأدبية عربياً. وهو ليس حتى منتجاً فنياً، إذ لا يمكن لمنتج فني أن يكون بهذه البلادة والبلاهة والرعونة المستفزة.

نعم، لا بدّ من نقد كلّ الرموز وكلّ المقدّسات الثقافية والدينية والاجتماعية، ورفض المسلسل لم يكن إلا لأنه أتى تسطيحاً استغلالياً لاسم "بيّيع" يجلب الربح المضمون في الترويج لـ وبيع الكتب، فما بالك في الترويج لـ وبيع مسلسل رمضاني يخصّص لتسلية الصائمين في تلصّص رخيص على حياة الشاعر، بل على جانب منها، بل وفي هذا الجانب، الذي يستحوذ على المسلسل، يسرح كاتب السيناريو –المتنطّح- في خيالاته المزيِّفة، وحياة درويش مادة درامية مربحة تخضع حلقاتها جميعها لشروط واعتبارات صنّاع المسلسلات الرمضانية: الخفّة، التسلية، التشويق، والمزيد المزيد من الإعلانات.

لا يهدف الملحق إلى طرح أو إعادة طرح النقاش حول المسلسل، ولم ينته لا النقاش ولا المسلسل. ولا يهدف إلى تقديم لوحة تشمل مختلف الآراء عنه، ولا هو عن المسلسل أصلاً، بل عن استباحة درويش واستسهال تحويل سيرته إلى مهزلة ربحية مجسّدة في مسلسل.

الملحق إذن يتبنّى، بمقالات انتقيناها من بين ما نشر في الصحافة، وجهة نظرٍ تفكّك وتنتقد هذه المهزلة. والملحق، أولاً وأخيراً، يقدّم دفاعاً عن حضور محمود درويش في الذاكرة الثقافية والوطنية الفلسطينية والعربية، لا لأن الرموز محرّم تجسيدها درامياً أو سينمائياً، بل لأن التعامل التجاري الرخيص السطحي الاستغلالي مع هذه الرموز لا يجب أن يمرّ دون ردع نقدي.

«الشبيحة» يختطفون محمود درويش

أمجد ناصر

التمثيل شيء والحياة شيء آخر. هذا نعرفه. يمكن للتمثيل أن يكون تنقيحاً لأخطاء الحياة. أن يكون تعويضاً، أو حتى اختلاقاً لما لم يحدث. في التمثيل (على الشاشة أو خشبة المسرح) كلّ هذا ممكن. لكن أن يكون التمثيل 'سلبطة' و'تشبّيحاً' فهذا، قطعاً، أسوأ التمثيل، بيد أن الاساءة تبلغ حدود الجناية عندما تكون هذه الحياة التي 'يتسلّبط' عليها 'التمثيل'، برعونةٍ فائقةٍ، لمّا تزل بيننا بحضورها المادي والمعنوي الكثيف.

هذا ما حصل لمحمود درويش على يد 'الشبّيح' فراس ابراهيم.

منذ اطلالته الاولى في مسلسل 'في حضرة الغياب' (المقتبس من عنوان كتاب لدرويش) يطلق هذا الممثل السيىء النار بين عيني محمود درويش ويرديه صريعاً. يموت درويش أمامنا على الشاشة قبل أن ينطق جملة واحدة، يموت ما إن تطالعنا البلادة الطافحة من وجه ممثل 'شبّيح' بامتياز. لا يموت درويش بنبلٍ، كما فعل في سفرته الأخيرة إلى الموت، ولكنه يموت ببلادة، بلا حد أدنى من الذكاء الذي كان خصلةً فارقة تتموَّج على جبينه. وهذه أسوأ الميتات. إنها جناية معلنة يُقدم عليها المدعو فراس ابراهيم بحق درويش ليس لأنه لا يشبهه (شكلا)، وليس لأنه حطّم شعره بأخطائه اللغوية ورخاوته الايقاعية، ولا لأنه يفبّرك (مع كاتب المسلسل) حياة لم تكن حياة درويش تماماً، بل لأنه، بالدرجة الأولى، ممثل سيىء في نص أسوأ.

لم يكن أحمد زكي يشبه جمال عبد الناصر ولكنه استطاع أن يقنعنا أنه عبد الناصر رغم التباعد الواضح في المظهر الخارجي للرجلين. الممثل الجيد قادر، رغم تباعد الشبه بينه وبين من 'يمثّل' شخصه، على أن يسبر غور الشخصية ويقدم ظاهرها وباطنها للمشاهدين. هذا ما يسمى في التمثيل بـ 'التقمّص'. إنه مذهب تمثيلي شائع ينسب، كما هو معروف، إلى المخرج الروسي ستانسلافسكي. هنا يذهب الممثل الى ما وراء جلد الشخصية. يدخل الى أعماقها، ولا يتم ذلك إلا بمعايشتها، إلاّ بالحلول التام فيها. الظاهر، في التمثيل، سهل. أقصد الشكل، لكنَّ الأصعب هو الباطن. هذا يحتاج أولاً: موهبة تمثيلية. ثانياً: معرفة بما وراء وجه الشخصية. لا يملك المدعو فراس ابراهيم تلك الموهبة ولا هو قادر، بالتالي، على تقديم شخصية محمود درويش ذات الشهرة العلنية الطاغية من جهة والمتكتمة، بل أكاد أقول المكتنفة بالأسرار، من جهة ثانية. لمحمود درويش، كما يعرف أصدقاؤه، أكثر من وجه. كان له أكثر من دور في القضية الفلسطينية لا تختصر، فقط، بالقصيدة. وله في الحياة، عموماً، أكثر من دور لا يختصر بالنساء. وله حضور في القصيدة لا يشبه، دائماً، حضوره في حياته الشخصية. الشعر والشاعر ليسا شيئاً واحداً. رغم تسرّب نُتَفٍ من حياة الشاعر في قصيدته، رغم أن القصيدة من لحم الشاعر ودمه وأعصابه وقلبه ودماغه، رغم أنها تشبه الولادة إلا أنها ليست نسخة كربونية من منتجها. فالقصيدة ليست سيرة حتى وهي تتضمن شظايا سيرية، ليست بطاقة هوية رغم أنها تحمل دي أن آيه شاعرها. من يكتبون الشعر، بل من يعرفون الشعر، يعلمون أن القصيدة قد تكون حلم الشاعر، قد تكون الحياة التي لم يعشها، بل قد تكون المثال الذي يصبو إليه ولا يتحقق في حياته الواقعية. هكذا يخفق مسعى كل الذين يبحثون عن تطابق تام بين القصيدة والشاعر. فمن كتب قصيدة 'أحنُّ إلى خبز أمي' هو نفسه الذي لم ترد أمه في شعره، متعينة، إلا في قصيدة متأخرة له بعنوان 'تعاليم حورية'. ما أقصده بهذا الكلام هو خطأ 'ترجمة' القصيدة. أي تحويلها إلى سيرة وخلق تناظر بينها وبين الشاعر، فكيف إذا كانت تلك 'الترجمة' ركيكة، بائسة، وعديمة الخيال كما بدت في مسلسل 'في حضرة الغياب'.

' ' '

أكاد أجزم أنَّ من كتب مسلسل 'في حضرةٍ الغياب' (وهو سيناريست فلسطيني سوري يقال إنه جيد في 'كاره' يدعى حسن .م يوسف) لم يلتق درويش، وجهاً لوجه، أو على انفراد، مرة واحدة. فلو أن جلسة واحدة جمعت بينهما لما ارتكب تلك الجناية بحق شخص محمود درويش. فصاحب 'لماذا تركت الحصان وحيدا' لا يقرأ شعره، في بهو فندق، لـ 'معجب' أو 'معجبة'. نحن، من نعتبر أنفسنا أصدقاء درويش، لم يفعل ذلك معنا. كنا نتحدث عن الشعر بالتأكيد، كان يبدي رأيه في عمل واحد منا، أو يسألنا عن رأينا في آخر عمل له، ولكنه لم يكن يستل ديوانه ويقرأ شعره 'على الطالع والنازل'. فهو لم يكن من الذين يحولون اللقاءات الاجتماعية والصداقيةٍ الى أمسية شعرية. أجزم أن ذلك، بالذات، كان يستثير مخزونه، الوفير، من السخرية التي قد تكون جارحة أحياناً. هناك أصدقاء له يطلعون على قصائده قبل أن تنشر ولكنه لا يقرأ لهم على سبيل نيل الاعجاب أو حتى الاستمزاج، فكيف يفعل ذلك أمام عاشق محبط يطارد حبيبة واقعة في حب رجل آخر: درويش؟ من يعرف محمودٍ درويش يعلم أن القصيدة عنده عمل كتابيٌّ بالدرجة الأولى. وليست القاء. ليست مثلا يضرب. ليست تطريباً ايقاعياً. يقرأ دوريش، كما نعرفٍ، قصيدته أمام الجمهور. إنه، على الأغلب، أكثر شاعر عربي فعل ذلك. لكنه، رغم مئات المرات التي قرأ فيها شعراً أمام جمهور، كان يستصعب تلك المهمة. كان يعرف أنه لا بدَّ أن يقرأ في جمهرة من الناس لأسباب عديدة، من بينها 'واجبه' كشاعر ارتبط فٍي ذهن كثيرين، على نحو عضوي، بقضية كبيرةٍ، ومنها اختباره لعملية التلقي ذاتها، لكنه كان يقرٍأ ما يريد. وغالباً ما كان يقرأ جديده. مع ذلك تظل القراءة فعلا لاحقاً على الكتابة. ومن يعرف درويش يعلم، أيضاً،

أنه كان يعكف على قصيدته كما لو كانت عملاً مختبرياً، فبقدر ما كان الضغط كبيراً على قصيدته كي تستجيب للراهن كانت تتفلت، بقدر ما تستطيع، من راهنية هذا الراهن وإكراهاته، وتحلّق، باندفاعةٍ ايقاعية، غنائية، متلاطمة الجوانب، في الاسطوري والواقعي والميتافزيقي.

لذلك بدت لي قراءات درويش أمام معجبين في هذا المسلسل البائس مثيرة للأسى فضلاً عن أنها بعيدة، كل البعد، عن شخصية درويش التي يتصدى لها.

ولكن ماذا عن تلك القراءة نفسها؟

يتملك الواحد منا غضب شديد عندما يسمع هذا الممثل الرديء، الذي أبى إلا أن يرتكب حياة واحد من أكثر الشعراء العرب كارزمية، وهو يقرأ قصائد دوريش بوصفه محمود درويش. يا للمهزلة. يا للفارق الفلكيّ. فلا نبرته تشبه نبرة دوريش ولا لغته الجسدية (التمثيلية) تشبه لغة درويش الجسدية، ولا حضوره الباهت، بل البليد، يقترب من حضور درويش الآسر، المسيطر، المتوتر، المنفرد والمحتشد، على المنبر.

'''

محمودٍ درويش ليس قديساً. ليس معصوماً عن النقد. ليس فوق التحليل والتشريح. ولست أرغب، هنا، في أن أسبغ عليه ما ليس فيه. انزعاجي من هذا العمل التلفزيوني يتعلق، أساساً وقبل أي شيء آخر، بالرداءة التي عُرضت فيها 'حياته'، أو ما ظن القائمون على المسلسل أنها حياته. فقد كان بالامكان عمل مسلسل جيد عن حياة درويش، بما لها وما عليها، رغم حداثة رحليه. فالأمر لا يتعلق، بقرب رحليه أو بعده، فهناك من صُنِعَتْ مسلسلات (أو أفلام) عن حياتهم وهمٍ أحياءٍ يرزقون ولكن الأمر يتعلق، أولاً وأخيراً، بالأهلية. بالكفاءة. بالقدرة على صنع سردية درامية ذكية، متقنة، وقبل ذلك، مقنعة لحياة دوريش شخصاً وشاعراً وصانعاً، مع قلة قليلة، الهوية الأعمق للفلسطينيين. كيف يمكن لنا أن نصدِّق أن ما نراه 'في حضرة الغياب' هو محمود درويش الذي بمقدور أي متصفحٍ لليوتيوب أن يراه، ذكياً، متألقاً، لماحاً، في عشرات المقابلات التلفزيونية والقراءات الشعرية؟

عتبي، مثل كثير من أصدقاء محمود درويش، على أخيه أحمد الذي أجاز، باسم العائلة، هذه المهزلة (رغم أنٍ درويش أكبر من أن يكون إرثاً حصرياً لعائلة). عتبي أكبر على مرسيل خليفة صديق محمود ومغني قصائده الذي قبل أن يكون طرفاً في هذا 'العدوان الثلاثي' (بحسب تعبير حسن خضر) على شاعر الأرض والجرح والأمل. كان ينبغي منع المدعو فراس ابراهيم، بكل السبل، من ارتكاب حياة محمود درويش، فليس هكذا يتقزَّم، أمام أعيننا، من كان طويلاً ونحيلاً 'كشهرٍ من العشق' أو أكثر.

عن القدس العربي

في ذكرى رحيل محمود درويش: التجارة الرخيصة وامتهان السيرة

صبحي حديدي

لم أشاهد أية حلقة من مسلسل «في حضرة الغياب»، ولا أنوي هذا بالتأكيد. المرء، إذْ يتحلى ببعض الحكمة والحدّ الأدنى من الوفاء لذكرى محمود درويش . الإنسان ابن البشر، قبل الشاعر الكبير والنجم اللامع . لا يعتب على تاجر رخيص العادات، وممثل بليد ثقيل الظلّ ضعيف الموهبة، مثل فراس إبراهيم. كما لا يصحّ للمرء ذاته أن يعتب على كاتب سيناريو مثل حسن م. يوسف، كان ذات يوم قاصاً واعد الموهبة، مثقفاً أصيل الإنحيازات، قبل أن تجرفه تجارة أخرى ذات صلات . واهية تارة أو متينة طوراً، سيّان! . بمؤسسات سياسية وإعلامية منحطّة الأعراف، تابعة لنظام الإستبداد والفساد في سورية. غنيّ عن القول، كذلك، إنّ مَنْ أسموا أنفسهم «أصدقاء محمود درويش»، تناوبوا على توجيه الطعنات إلى صديقهم (في غيابه، إذْ هيهات أنّ أحدهم تجاسر على إغضابه في حياته!)؛ مرّة إلى شعره، من منطلق «الحبّ القاسي» الذي استصرخهم، ذات زمن مبكر، أن ينقذوه منه؛ ومرّة إلى سيرته الشخصية، باسم معرفة . كاذبة وزائفة، أو سطحية مبتذلة . بعاداته وطبائعه وقمصانه وربطات عنقه وأقلامه و... نسائه!

لا أجدني أعتب إلا على أحمد درويش، شقيق الشاعر والقيّم على حقوقه، والناطق باسم ورثته، لأنه منح أمثال فراس إبراهيم وحسن م. يوسف والأصدقاء/ التجار تغطية قانونية كاملة لإنتاج مسلسل تَجمع آراء ثقاة كثيرين على أنه أكثر من مأساة/ مهزلة، وأشبه باستباحة همجية لسيرة الراحل. ولا أنطلق في عتبي هذا إلا من زاوية واحدة وحيدة، هي أنّ أحمد درويش يعرف دقائق الصداقة التي جمعتني مع محمود درويش، وأنّ دافعي في نهاية المطاف هو الحرص على أقصى التكريم (أو لعلّي أقول: الحدّ الأدنى منه!) لشقيقه، وصديقي، بصرف النظر عن حقوق شاعر كبير لا تُمتهن سيرته بهذه الخفّة، بترخيص من الشقيق الأكبر وممثّل الأسرة. سوى ذلك، وبالمعنى القانوني المحض، لا أحد ينازع أحمد درويش في أن يفعل بشقيقه ما يراه مناسباً، فهو حرّ ومخوّل؛ ولا أحد، بالمعنى الأخلاقي والسلوكي، في المقابل، ينبغي أن يأخذ علينا أننا نتدخّل في ما لا يخصّنا.

وفي جانب آخر من هذه الحكاية، فوجئت قبل أيام بوجود توقيعي على بيان ضمّ أكثر من ٢٠٠٠ اسم، يستنكر عرض المسلسل ويطالب بوقفه. والحال أنني، مع احترامي التامّ لكلّ صاحب رأي، لا أرى نفسي في موقع مناشدة الفضائيات، أنا الذي أعتذر عن الظهور على شاشاتها في مسألة أخطر بكثير، هي الإنتفاضة السورية؛ أو التعريض بشخص فراس إبراهيم، الذي أحيل من جديد إلى توصيفي له، أعلاه؛ أو مناشدة هذا المسؤول الفلسطيني أو ذاك، وغالبيتهم لا يتباينون إلا في تقاسم الأدوار حين يتصل الأمر بنبش ذكرى الراحل. ولقد اتضح لي أنّ أحد الأخوة الفلسطينيين، في رام الله، انطلق من نيّة حسنة، واعتبر أنه «يمون» عليّ في إجراء كهذا، وأنه لا يجوز لي أن أغيب عن اللائحة، فأضاف اسمي.

وأجدني، في هذه العجالة، وإذْ ندخل في السنة الرابعة على غياب محمود درويش، أستعيد بعض تفاصيل حرصه الشديد على أن تبقى خصوصيات حياته خاصة تماماً، وإلى درجة الإفراط أحياناً؛ ثمّ أتخيّل، متكئاً على ما كُتب في ذمّ المسلسل، مقدار الخيانة التي تعرّضت لها تلك الخصوصيات، بيد مَنْ يعدّون أنفسهم في مصافّ «أقرب المقرّبين»، ومن أبواب شتى يختلط فيها الحبّ القاسي بالصداقة القاتلة، والتجارة الرخيصة بالتوليف السفيه. وإذْ لا يزال المرء يأمل في افتتاح متحف محمود درويش، وأقصد المتحف الحقيقي الحيّ والحيوي، وليس الصرح البارد والضريح الصقيعي؛ فإنّ الذين اختزلوا ذكراه في مسلسل فراس إبراهيم/ حسن م. يوسف يعرفون أنّ مفردات تلك الذكرى ما تزال غنية ثرية حافلة بالكثير الذي يكرّم محمود درويش، بما يليق بشخصه وحياته ومنجزه الإبداعي، وبما يحترم الملايين من محبّيه، سواء بسواء.

وتلك مفردات، بينها تفاصيل ثمينة مذهلة وجميلة بديعة، لم يكن في وسع التجار والكذبة الوصول إليها، لأنها ليست ولن تكون في متناول أيديهم، أوّلاً؛ وبسببٍ من رخص التجارة وإدقاع الكذب، ثانياً؛ ولأنهم لم يقرأوا من سيرة محمود درويش إلا الظاهر البسيط، والواقعة المشاع، والشخصية العامة، ثالثاً. وذات يوم، حين ستُكتب السيرة الحقّة، سوف يبدو محمود سليم درويش، ابن حورية، أعظم بكثير من مجرّد قدّيس مسبق الصنع بمواصفات غير آدمية، وأرفع قامة من محض رمز محنّط عن فلسطين، وبالتالي أعلى إنسانية في تقلبات نفسه وجسده، وأرفع قيمة من اختزالاته كافة. وراهنوا أنه سوف يكون أقرب كثيراً إلى حقائق وجود بشري طافح بالهشاشة والقوّة، بالتواضع والغطرسة، بقامة تتطامن نحو السرو مثلما تداني العشب، وبعبقرية الشاعر المتجدد الذي صار أيقونة كونية كبرى، وأثقال الفلسطيني الذي لا يترفّه بالسياسة بل تقترن بوجوده كما الدرب إلى الجلجلة...

وهذا الـ محمود درويش ليس حاضراً في الغياب على النحو الركيك الذي يريدونه، بل كما شاء لنفسه حين ختم «جدارية» عمره :

كأنّ شيئاً لم يكنْ
وكأنّ شيئاً لم يكنْ
جرح طفيف في ذراع الحاضر العبثيّ...
والتاريخ يسخر من ضحاياه
ومن أبطاله...
يُلقي عليهم نظرة، ويمرّ...
هذا البحر لي
هذا الهواء الرطب لي
واسمي -
وإنْ أخطأتُ لفظ اسمي على التابوت -
لي.
أما أنا - وقد امتلأتُ
بكلّ أسباب الرحيل -
أنا لستُ لي
أنا لستُ لي...

عن موقع الرأي

عن العدوان الثلاثي، ومسلسل في حضرة الغياب..!!

حسن خضر

تعرّض محمود درويش لعدوان ثلاثي شنه، مع سابق إصرار وترّصد، ممثل رديء، وسيناريست متوسط الكفاءة في أفضل الأحوال، ومخرج شاطر. لا أعتقد أن ثمة كلمة، وبقدر ما يتعلّق الأمر بمسلسل اسمه "في حضرة الغياب"، توجز ما حدث أبلغ من العدوان.

قبل الاستطراد فلنعد إلى أفكار أساسية منها:

-١-

أولا، محمود درويش شخصية عامة، وبالتالي فهي ملك للناس بالمعنى الواسع للكلمة، بمن فيهم الممثل، والسيناريست، والمخرج.

ثانياً، هذه الملكية لا تنفي حقيقة إضافية مفادها حق الآخرين في الحكم على كفاءة الممثل، والسيناريست، والمخرج في الاستفادة من هذا الحق.

نحن، إذاً، إزاء حق مزدوج يذهب في اتجاهين. وما دمنا في حقل الأفكار الأساسية فلنقل، أيضاً، إن ممارسة الممثل، والسيناريست، والمخرج، لحق الملكية ينطوي على دلالات مختلفة:

ربما يقرر هؤلاء الاقتراب من عالم الشخصية العامة تصويباً لخطأ شائع، وكشفاً لجوانب ما تزال مجهولة (كما هو الشأن في مسلسل الملك فاروق، مثلاً)، أو خدمة لقضية ما (كما هو شأن الكثير من المسلسلات التاريخية)، أو للتربّح على حساب الشخصية العامة، خاصة إذا كانت من وزن محمود درويش، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

ولا أريد، هنا، اتهام الممثل، والسيناريست، والمخرج بالتربّح، فهذا أمر متروك لمشاهدي المسلسل، ولكنني أملك حق الحكم على المسلسل بالرداءة، وإذا جاز لي إعادة عبارة مشهودة لمحمود درويش، سأقول لقد أصيب محمود درويش بممثل وسيناريست، ومخرج دفعة واحدة. وهذا يحتاج إلى تفسير.

كان من عادة محمود إذا التقى شخصاً لا يطيقه، أو إذا فرض شخص نفسه على جلسة من جلساته، القول: أصبتُ اليوم بفلان. أحياناً يفعل ذلك بطريقة ساخرة، وفي أحيان أخرى بقدر لا يحرص على إخفائه من الغضب. فلان، هذا، في اللغة الدرويشية يشبه الصداع، ونزلة البرد، والمغص، الذي يصيب بني البشر. ومن المؤسف، أن محمود درويش أصيب بهؤلاء الثلاثة دفعة واحدة، ولم يعد في وضع يمكنه من جلدهم بسياط لسانه.

-٢-

لا بأس. أصيب محمود درويش بممثل رديء، وسيناريست متوسط الكفاءة في أفضل الأحوال، ومخرج شاطر، دفعة واحدة. فلنذهب إلى ما بعد الإصابة، أو بشكل أدق إلى ما يحول دون تكرارها بهذا القدر من الاستخفاف بميراث الشاعر أولا، وذاكرة القرّاء ثانياً. والسؤال الرئيس، هنا، يُصاغ على النحو التالي: كيف نفكّر في محمود درويش؟ وهذا يعني، سواء كتبنا كتاباً أو سيناريو، أم مثلنا فيلماً أو مسرحية، أو عقدنا مؤتمراً في النقد، تعيين وتعريف وتسمية محمود درويش. ونقطة البدء، هنا، أن التعيين والتعريف والتسمية أشياء لا يمكن تحقيقها خارج النص الدرويشي نفسه. بمعنى آخر: نفكّر في محمود درويش من داخل النص الدرويشي لا من خارجه. فما الذي يقوله النص الدرويشي عن صاحبه؟ هذا سؤال أوّل.

وبقدر ما أزعم من معرفة بالنص الدرويشي، فإن النص الدرويشي يتجلى في محاولة استغرقت عمراً لاقتراح والعثور على إجابات محتملة لأسئلة من نوع: لماذا يريد الفلسطيني أن يكون شاعراً، وكيف يكون الفلسطيني شاعراً، وكيف يكون الشاعر فلسطينياً.

في "لاعب النرد"، وهي كشف حساب في ربع الساعة الأخير، يفسِّر محمود درويش السؤالين الأوّل والثاني، ومنذ "ورد أقل" يجازف بأشياء كثيرة لتفسير معنى أن يكون الشاعر فلسطينياً، ويتكلّم في مقابلات لاحقة عن شاعر يولد دفعة واحدة، وآخر يولد على دفعات، ثم يضع نفسه في خانة المولود على دفعات. فكرة الولادة على دفعات، هذه، صياغة مجازية لمعنى أن يكون الشاعر فلسطينياً.

لدى الفلسطيني كل ما يحرّض على كتابة الشعر، وبمزيج من الموهبة والمثابرة يصبح شاعراً، لكن الشاعر يحتاج إلى مغامرة فريدة لكي يصبح فلسطينياً، وهذا يستدعي، ضمن أمور أخرى، رفع فلسطين اليومية، المألوفة والأليفة والجريحة والفصيحة إلى مرتبة الاستعارة الكونية، أي وضعها على سكة التاريخ، والعثور عليها في الحروب الطروادية، وفي تاريخ الهنود الحمر (وهذه مجرد أمثلة). لا تصبح فلسطين استعارة كونية لمجرد أن شاعراً ذكر طروادة، أو الهنود الحمر، في قصيدة، بل عندما يصبح المخيال طروادياً، ويفلت الهندي الأحمر من تفاصيل حادثة وقعت في زمان ومكان محددين، ليندرج في إطار تاريخ إنساني عام. وعلى ذلك فقس.

-٣-

فلسطين والشعر محوران رئيسان في حياته. بهذه الطريقة نفكّر في محمود درويش. وهما، أيضاً، محوران رئيسان في حياة آخرين. بيد أن ثمة ما يميّزه عن الآخرين. ولا أود الكلام، هنا، عن الموهبة، والالتزام، بل عن السمات الفردية، التي إذا أضيفت إلى الموهبة والالتزام، صنعت شخصاً فريداً ومتفرّداً اسمه محمود درويش.

وماذا عن السمات الفردية؟

وهذه، أيضاً، تحضر في النص الدرويشي، ويمكننا نحن الذين منّت علينا السماء بنعمة الاقتراب من عالم محمود درويش، ومعايشته عن قرب، تشخيصها من خلال مواقف، ومفارقات، وأحداث وأحاديث. بيد أننا لا نملك الحق في مصادرة حق الآخرين (الذين لم يعرفوه عن قرب) في تأويل السمات الفردية، بقدر ما تحضر في النص الدرويشي، بطريقة جديدة.

بهذا المعنى ينفتح النص الدرويشي على الحياة، يكتسب حياة مستقلة، ويجدد نفسه مع كل قراءة جديدة. القراءة لا تنحصر في العمل النقدي، أو المحاكاة والتجديد الشعريين، بل في المعالجة المسرحية والسينمائية، وفي اللوحة التشكيلية، والأداء الصوتي والموسيقي، أيضاً.

والمضحك المبكي أن الذين شنوا عدواناً ثلاثياً على محمود درويش في مسلسل اسمه "في حضرة الغياب"، وهم ممثل رديء، وسيناريست متوّسط الكفاءة في أفضل الأحوال، ومخرج شاطر، لم يحتكموا إلى النص الدرويشي نفسه، أي لم يبحثوا عن محمود درويش في نصه، بل استعاضوا عن البحث بما يشبه الوشاية والنميمة. كيف؟

ثمة أكثر من فرق بين النزعة العاطفية sentimentalism والنزعة الرومانسية romanticism، ولا وجود لهذه أو تلك في حياة محمود درويش، وفي نصه. وهذا ما يتضح في بداياته عندما كتب عن عاشق ينتظر في حديقة عامة موعداً لم يتحقق، وفي أواخر أيامه عندما كتب عن الحب باعتباره كذبة صادقة.

وإذا شئنا الاستطراد، قليلاً، فلنقل إن النجاة من النزعتين العاطفية والرومانسية تفسِّر النجاح في المزج الفريد بين صوتي الفرد والجماعة. كان يقول ما يريد الفلسطينيون قوله لكنهم لا يعثرون على مفرداته، ويقول كلام الشاعر في الحب فلا يجد العاشق الفرد صعوبة في التماهي معه، وغالبا ما كان هؤلاء ينكرون على الشاعر حقه في تأويل مختلف. فلا ينبغي لامرأة بعينها أن تنازع فلسطين الحق في احتكار التأويل.

ولا ينبغي، في نظر العاشق الفرد، لفلسطين مهما سمت وتسامت أن تنازع امرأة بعينها، من لحم ودم، وحدائق عامرة بثمار الجنّة، الحق في احتكار التأويل. في النص الدرويشي ما يمكّن الجماعة والفرد، على حد سواء، من ادعاء الصواب.

-٤-

الممثل الرديء، والسيناريست متوّسط الكفاءة، والمخرج الشاطر، لم يركبوا المركب الصعب، أي لم يبذلوا جهداً يُذكر في تفسير خصوصية هذا التوتر الإبداعي المقيم في النص الدرويشي منذ بداياته وحتى يومه الأخير. وعلى الأرجح، لم تخطر على بالهم أسئلة كهذه. فعيونهم على ثلاثين حلقة، تغطي ثلاثين يوماً مما تعدون، تُباع لفضائيات وتُسلي الصائمين، في شهر أصبح سوق عكاظ جديدة للمنتجين، والممثلين، والمخرجين، ورجال الأعمال، أي للبزنس.

وهل ثمة من موضوع يمكن تمديده وتبديده وتجديده في ثلاثين حلقة أغنى من الحب، وعلى وجه الخصوص إذا ارتبط باسم شخصية عامة ملأت الدنيا وشغلت الناس، وكانت الشخصية العامة نفسها وثيقة الصلة بمسألة ذات حمولة عاطفية وسياسة وبلاغية اسمها فلسطين؟

في سياق كهذا يصطاد الممثل الرديء، والسيناريست متوّسط الكفاءة في أفضل الأحوال، والمخرج الشاطر، أكثر من عصفور بمسلسل واحد. ففي كل ما يتعلّق بالسيرة، وما يتصل بها من ترجمات وتأويلات نصية وسمعية وبصرية، تراود المتلقي غواية استراق النظر إلى حيوات الآخرين، ولهذه الغواية، بحكم ما فيها من طاقات تخييلية ونفسية هائلة، مزايا تسويقية وتجارية (يعني شهرة ومال) لا تغيب عن أعين المنتجين والممثلين

والمخرجين في زمن التلفزيون والفضائيات.
يأتي المشاهد إلى حياة الشخصية العامة، سواء جاءت في كتاب أم في مسلسل، مدفوعاً بغواية استراق النظر، لكنه لا يفعل ذلك بطريقة مستقلة تماماً، بل يحتكم إلى ذاكرتين جمعيتين نصية وبصرية (طالما تكلمنا عن الكتب والمسلسلات) وتحكم كلتاهما طريقته في القراءة أو النظر. بمعنى آخر هو لا يقرأ ولا يرى إلا من خلال عدسات ثقافية سائدة.
والأمر نفسه ينطبق على الممثل، والسيناريست، والمخرج. فهؤلاء يحتكمون إلى ذاكرتين جمعيتين نصيّة وبصرية: مرّة باعتبارهم قرّاء، ومرّة باعتبارهم منتجين للذاكرة في تجليات بصرية. وهم، إضافة إلى هذا وذاك، يسهمون في صناعة الذاكرة الجمعية، بقدر ما تسهم هذه في صناعتهم. وبقدر ما يتعلّق الأمر بالإبداع في ضرب من ضروب الفن أو الأدب، فإن الخروج على الذاكرة الجمعية، أو إعادة النظر فيها، يمثل شرطاً من شروط التفوّق.
بيد أن هذا الشرط يفقد قيمته إذا احتكم هؤلاء إلى منطق السوق، ومبدأ العرض والطلب، عندئذ يُعاد إنتاج الذاكرة الجمعية في صور نمطية تكرّس توقعات القارئ، أو المشاهد، بتقنيات مختلفة من بينها الحشو، والتوابل، والتكرار، وهكذا دواليك في دائرة مغلقة لا تنجو في أغلب الأحيان من الابتذال والإسفاف.
فلنقل ما قلناه بعبارات أخرى، ما فعله الممثل الرديء، والسيناريست متوّسط الكفاءة في أفضل الأحوال، والمخرج الشاطر، أصحاب مسلسل "في حضرة الغياب" هو التالي:
أعادوا إنتاج محمود درويش لا من داخل نصه، بل من ذاكرتين جمعيتين نصية وبصرية، تهيمن عليهما العدسات الثقافية لأفلام ومسلسلات المقاولات، التي تصلح للتسلية والتسويق في رمضان، والتي لن تجني أرباحاً يُعتد بها ما لم تشترها محطات الخليج والسعودية.
فهناك مصدر المال الحقيقي (إنتاجاً وتسويقاً)، وقد كان لهذا المال، وشبكاته المصرية والسورية واللبنانية والفلسطينية، نصيب الأسد في صياغة الذاكرة البصرية على وجه الخصوص، منذ أواسط السبعينيات، وبفضله نشأ ما لا يحصى من المسلسلات التاريخية، والهزلية، والبدوية، والدينية.
وإذا شئنا دفع الفكرة إلى حدها الأقصى فلنقل إن تلك المسلسلات (مع استثناءات قليلة بارزة بطبيعة الحال) كانت جزءاً من عملية تكريس الواقع السائد في العالم العربي: انفصال السياسي عن الثقافي، انفصال الثروة عن القيم، تكريس الأمر الواقع والتراتبية الثقافية والسياسية السائدة، تضخيم الذات القومية، والانهماك في الهامشي والتافه والمبتذل. وهو الواقع الذي تمرّد عليه العرب منذ مطلع العام الحالي.

-٥-

كيف أعاد ممثل رديء، وسيناريست متوّسط الكفاءة في أفضل الأحوال، ومخرج شاطر، إنتاج محمود درويش لا من داخل نصه، بل من ذاكرتين جمعيتين نصية وبصرية؟
فعلوا ذلك من خلال الاحتكام إلى، وإعادة إنتاج وتدوير، صورة نمطية سائدة عن الشاعر (مطلق شاعر) ففي المخيالين الشعبي وإلى حد ما العالِم، يبدو الشاعر شخصاً حالماً في أغلب الأحيان، بوهيمي النزعة، يفرط في الشراب، وفي المغامرات النسائية، لا يهتم بهندامه، من الصعب توّقع تصرفاته، ويعيش بطريقة تختلف عن غيره من بني البشر، وغالباً ما يفتك بقلوب النساء، أو يبكي مجروحاً من الوجد والشوق والهجران.
هذه هي الصورة النمطية في حالتها الخام، أي القابلة للتشكيل استناداً إلى ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية متغيّرة. فإذا أضفنا إليها حقائق من نوع أن لدينا شاعراً اسمه محمود درويش، اقترنت سيرته الشخصية والإبداعية بصعود الحركة القومية الفلسطينية، وتحوّل إلى شاعر قومي لشعبه، تصبح المشكلة تفصيل صورته بطريقة تخدم الصورة النمطية (السائدة، ذات الطاقة التسويقية العالية)، وإضفاء ما يلزم من التوابل، وما تيسّر من الحقائق الأتوبيوغرافية، بما يكفي لضخ الحياة في الصورة لا في الشاعر نفسه. لحظة التفصيل، هذه، ضرورية، لوضع الصورة على سكة السرد، أي السيناريو.
والواقع أن هذه الصورة النمطية، بالتحديد، التي يحرص شعراء أقل موهبة على تسويقها، وتفتن ربّات البيوت، والأولاد والبنات في مجتمعات مُغلقة، وتثير حسد الكهول، تمثل كل ما لا يشبه محمود درويش الشاعر، والإنسان في حياته اليومية، الخاصة والعامة.
ولا أستمد دليلي، هنا، من معرفة عن قرب تغطي فترة طويلة من الزمن وحسب، بل وأحتكم إلى النص، وإلى مقابلات منشورة كثيرة تكلّم فيها عن جوانب من حياته الشخصية، ومهنته كشاعر، أيضاً.
لا وجود في النص الدرويشي، كما أسلفت، للنزعتين العاطفية والرومانسية، وكلتاهما وصفة مضمونة لتكريس صور نمطية. خلافاً لذلك، يوحي النص بحرص دائم على تفكيك الصورة النمطية للشاعر والشعر في آن.
في قصيدة مهداة إلى بابلو نيرودا يتكلّم محمود درويش عن الشعراء: "عاديون.. عاديون ما بين القصيدة والقصيدة"، وهم مع هذا وذاك، ما بين القصيدة والقصيدة: "يكرهون الشعر، والفجر المبكّر، والوطن".
وهذا يعني، ضمن أمور أخرى، أن الشاعر في القصيدة، أما خارجها فما من مبرر يرفعه فوق العادي، أو يخرجه من دائرة المألوف. وهذا، أيضاً، ما حاول محمود درويش التدليل عليه في هندامه الأنيق، وانضباطه الاجتماعي والأخلاقي، وكراهيته للنزوات، والشطحات، والسخرية الدائمة من تظاهر الشعراء بالعيش في لحظة إلهام ينبغي للآخرين أن يغفروا لصاحبها ما فوق العادي وما دونه.
وفي السياق نفسه، لم يتكلّم شاعر عربي حديث عن الشعر كمهنة، وعن صنعة وصناعة الشعر، بقدر ما تكلّم محمود درويش: "لا دور لي في القصيدة، إلا إذا انقطع الوحي، والوحي حظ المهارة إذ تجتهد".
ثمة ما لا يحصى من الحالات التي يبدد فيها المفهوم الرومانسي للشاعر، والصورة النمطية الشائعة عنه. وفي عمله النثري/الشعري الأخير: "في حضرة الغياب" محاولة لتفكيك معنى الشعر نفسه. وهذه المحاولة بدأت في الواقع منذ "سرير الغريبة". ما هو الشعر، ولماذا تصبح هذه العبارة شعراً، وإذا قيلت بطريقة أخرى تفقد حقها بهذا التعريف، وبماذا يتفوّق الشعر على النثر؟
ونأتي إلى موضوع الحب. ولا أريد هنا، سوى الاحتكام إلى النص الدرويشي نفسه. ثمة أكثر من فرق بين الدون جوان والعاشق. الدون جوان لا يحب بل يحب الحب، أما العاشق فيحب لكنه يفشل في تعريف الحب. وقد كان محمود درويش عاشقاً من فلسطين.
لا أكتب هذه الكلمات الآن لتعزيز دلالة وطنية، أو لتعزيز فكرة الالتزام والانتماء لدى محمود درويش، بل للتذكير بحقيقة أن فلسطينيته هي المفتاح الحقيقي لكل شيء آخر، بما في ذلك الحب والنساء. وهذه الفلسطينية مسألة إشكالية لا تُقاس بمسطرة الأبيض والأسود. وربما يفسر تعبير العاشق من فلسطين (وهذا بالمناسبة عنوان ديوان مبكّر كان بدايته الحقيقية) الحضور الإيروتيكي لفلسطين في النص الدرويشي، والتماهي الدائم بينها وبين امرأة من لحم ودم. وفي جميع الأحوال لم ينفق أيامه في مطاردة النساء، أو إقامة علاقات متعددة في وقت واحد.
لم يحب محمود درويش امرأة بعينها، من لحم ودم، حبّا حقيقياً وكاملاً، بل بحث عن هذا البحث ولم يعثر عليه. لكنه كان عفيفاً ومتعففاً، وخيبة الأمل في العثور على الحب، الذي يجب ما قبله، وما من بعده بعد، تحوّلت في نصوصه إلى سخرية أنيقة.

-٦-

سأعيد كل ما قلت بطريقة جديدة، ومن خلال مشهد في مسلسل "في حضرة الغياب". في المشهد يقف الممثل الرديء (الذي تقمّص شخصية محمود درويش) أمام أشخاص يعدون على أصابع اليدين، يجلسون على مصطبة حجرية في مكان ما، ويقرأ مقاطع من كاماسوترا. تجلس بين الحاضرين بنت ترنو إليه بعينين حالمتين.
كم مرّة رأينا هذا المشهد من قبل، في أفلام عبد الحليم وشادية، وفي أفلام فريد الأطرش؟ هذا ما أعنيه بالذاكرة البصرية السائدة. فكل ما فعله الممثل أنه شطب عبد الحليم وشادية وفريد الأطرش من المشهد، وارتدى ما يعتقد بأنه ملابس محمود درويش، ووضع على عينيه نظارة (ذات إطار أسود، ونظارة محمود درويش ذات إطار من العاج بنية اللون).
في مشهد كهذا يتم توليد الصورة النمطية عن الشاعر، باعتباره "حبيّباً"، وعن العلاقة بينه وبين مستهلكي شعره، باعتبار أن أفضل من يمثلهم امرأة عاشقة وساهمة العينين. هنا، تضيع العلاقة الخاصة التي ربطت بين محمود درويش وما لا يحصى من العرب على مدار أربعة عقود، وتُختزل في امرأة دامعة العينين.
المشهد مسروق من عبد الحليم، وفريد الأطرش، ومسلوق لأن محمود درويش كان يقرأ أمام آلاف مؤلفة من بني البشر، ولم يحدث أن قرأ لأشخاص يعدّون على أصابع اليدين يجلسون على مصطبة حجرية. ولو افترضنا، جدلاً، أن المخرج أراد إعادة إنتاج الواقع، ولم يكتف بعيّنة منه، لكان من واجبه الذهاب إلى جرش، في الأردن، حيث قرأ محمود درويش أكثر من مرّة، وإحضار آلاف مؤلفة من بني البشر للجلوس هناك.
هذا يكلّف الكثير من المال. اختزال مشهد مسروق في عيّنة صغيرة، وسلقه بهذه الطريقة، لتوفير المال (مال المُنتج الذي تصادف أنه الممثل الرديء أيضاً) لا يحرّض على عقد مقارنات بين الواقع والخيال وحسب، بل ويبرر اتهام الخيال بالفقر.
وماذا عن لغة الجسد. قبل أن يلعب فريق لكرة القدم مباراة مع فريق آخر، يعرض عليهم المدرّب أشرطة فيديو لمباريات لعبها الفريق الخصم. وقبل أن يمثل أحد دور شخص آخر ينبغي أن يشاهد أشرطة فيديو لإتقان طريقته في الكلام، ولغته الجسدية. ومن الواضح أن الممثل لم يفعل ذلك، وإذا فعل، فيبدو أنه لم ير من محمود درويش سوى سترته الزرقاء، ذات الياقة الواسعة، وخصلة الشعر المنسدلة على جبينه.
قامة الممثل الرديء، أقصر من قامة محمود درويش، بالمعنى الفيزيائي للكلمة، وملامح وجهه كما تبدو في المسلسل أقرب إلى فريد الأطرش منها إلى محمود درويش، ومع هذا وذاك، يتحرّك ببطء شديد كمن يمشي في نومه. أما محمود درويش الواقعي، الحقيقي، فجسمه مشدود بنوابض سريعة الاستجابة، ومشحون بتوتر دائم يتجلى في حركات يقظة وسريعة.
بيد أن المشهد يفصح عن المزيد. لم يكن ليخطر على بال محمود درويش الواقعي، الحقيقي، وليس المتخيّل، أن يرشو امرأة بقصيدة، أو أن يقرأ لامرأة بعينها، لأن تفكيكه للصورة النمطية للشاعر، كان مشروطاً باحترام الذات، وعدم الخضوع للابتزاز، حتى وإن كانت دوافع الآخرين بريئة. ومع هذا وذاك، كانت طريقته في إلقاء الشعر فريدة، كان الأداء جزءاً من بنية النص، أما القارئ في مشهد الكاماسوترا، أمام المصطبة الحجرية، والبنت ساهمة العينين، فلا يثير سوى الشفقة.
من العبث المقارنة بين محمود درويش الواقعي، الحقيقي، وذلك الذي انتحل شخصيته ممثل رديء. وحتى إذا وضعنا الدوافع التجارية جانباً، هل نسعى لتحليل إصرار ممثلٍ بعينه على انتحال شخصية محمود درويش لمدة ثلاثين يوماً بالتمام والكمال، يقضيها في غواية النساء (سينفق محمود درويش المزعوم في المسلسل من الوقت في صحبة الحسناوات أكثر مما أنفق محمود درويش الواقعي والحقيقي منذ البلوغ وحتى الرحيل)، وكتابة الشعر، وتمثيل فلسطين، من باب التحليل النفسي. لماذا أراد أن يكون محمود درويش وليس نابليون بونابرت، مثلاً؟ هذا منجم إضافي للمعرفة، ولا يتسع المجال، لتحليل كهذا.
كل ما في الأمر أن محمود درويش تعرّض لعدوان ثلاثي شنه ممثل رديء، وسيناريست متوّسط الكفاءة في أفضل الأحوال، ومخرج شاطر. ومفردة شاطر، هنا، تُستخدم بالمعنى التراثي القديم. هذا كل ما في الأمر.

عن الأيام

الغياب "في حضرة الغياب"

في غياب الغياب

سميح شبيب

حاولت جاهداً متابعة مسلسل "في حضرة الغياب"، لفراس إبراهيم، لكنني فشلت حقاً!. ما ورد في الحلقات الثلاث الأولى، من أداء وأحداث وحوار ولغة، رفع السكّر في الدّم، وضغط الدّم وهو أخطر ما أعاني منه من أمراض دائمة، وما يشكله ذلك من مخاطر على قلبٍ معتل.

العمل لا يمتاز بالسطحية والافتعال وعدم الدقة فحسب، بل إنه جاء عملاً متعجلاً، يتعرض لشخصية فنية عميقة بالأبعاد كافة، وهي شخصية تستحقّ حقاً، دراسةً متأنّيةً وحواراً مدروساً ودقيقاً، وأداءً سليماً، خاصةً فيما يتعلّق باللغة وقواعدها، وطرائق النطق بها. لا أقول إن المسلسل جاء مخيّباً للآمال فحسب، بل إنه جاء في إطار التشويه والإساءة إلى شخصية محمود درويش ودوره وتاريخه الثقافي والسياسي على حدٍّ سواء!.

الإساءة هنا، تطال رمزاً من رموزنا الثقافية، وشاعراً يستحق لقب "الشاعر العام"، إن جازت التسمية.

ما تابعته من حلقات ثلاث، يؤكد، وبما لا يدع مجالاً للشك، أن من وضعوا الحوار وسلسلوا الأحداث لا يعرفون محمود درويش، ولا يفهمون لغته ودلالات أبيات شعره.

الإساءة هنا، تطال رمزنا الثقافي محمود درويش، كما تطال عائلته وأبناء شعبه، كما تطال كل ناطق بالعربية. وتقدم شخصيةً هي شخصية بعيدة عن روح شخصه محمود درويش وروحه وشعره وفلسفته.

لا أدري إن كان هناك إصرار على استمرار المهزلة / الإساءة، أم أن المحطات التي تبثّ هذا المسلسل ستكتفي بما تم بثه، وبعد كل ما كتب عنه من آراء، جاءت جميعها ناقدة. لكن وفي حالة الإصرار على استمرار هذه المهزلة / الإساءة، لا أدري ما هي الوسائل الكفيلة بوقفه وإنهاء هذه المهزلة؟!.

هل بإمكان مثقفين من مختلف المشارب والأقطار العربية، أن يصدروا بياناً بشأن هذا المسلسل، يطالبون بوقفه وإنهاء بثه؟! وفيما إذا حصل ذلك، هل تستجيب محطات البث الفضائية لطلبهم هذا؟!.

وفي حال وقفه، هل يمكن للجنة مختصة، أن تقدم حججها وحيثيات رأيها بالمسلسل، لإسقاطه وإلغاء وجوده، وكأنّ شيئاً لم يكن؟!.

بعد متابعتي للحلقات الثلاث الأولى، تمنّيت فعلاً، ألاّ يكون هذا العمل قد ظهر للوجود. ولكن، وبعد أن ظهر، فلنتنادى جميعاً لوقف بثه فوراً، والحيلولة دون ظهوره ثانية. واعتبار ما حدث إساءة لنا جميعاً. قصد الفاعلون ذلك، أم لم يقصدوه.

عن الأيام

وليد أبو بكر

التقيت حسن م. اليوسف، مؤلف مسلسل "في حضرة الغياب"، (الذي تربطني به معرفة قديمة، وأعرف أنه جادّ، وأحبّ . في العادة . ما يكتب). كان قد أنهى كتابة المسلسل، وكان ممثله ومنتجه في المستشفى، بسبب حادث سيارة خلال عودته من عمان، بعد أن التقى شقيق محمود درويش (وأظنّه أحمد).

أبديت للكاتب تحفظا لا لبس فيه حول أمور ثلاثة: الأول هو سرعة إنجاز مسلسل عن الشاعر الكبير الراحل، بعد وفاته بفترة لا تسمح بالتأمّل، خصوصا وأن حياة الشاعر، وقضيّته التي ارتبط بها شعره، مركبة إلى حدّ كبير؛ والثاني هو أن من سيمثل الشخصية، بفلوسه (على حدّ تعبير سامي العدل، حين سئل عن إصراره على الظهور الكثير في أعمال تنتجها شركته وإخوته، العدل غروب، كثيرة الإنتاج)، ليس ممثلا بقامة درويش، وكنت لاحظته مرتبكاً في أداء أدوار أقلّ أهمية، في القليل مما شاهدته له؛ والثالث هو المخرج الذي اختير للعمل، لأن نجوميته قامت على الإبهار، الذي كثيرا ما يخرجه عن السياق، إلى الشكل الإعلانيّ، وهو في التقييم النقديّ ضعيف، لا تغطيه الشهرة التي كثيرا ما تصنعها بعض الظروف غير الفنية.

الكاتب قام بمهمته وانتهى، ولذلك اكتفى بالصمت. ولم أكن اطلعت على شيء من النص، حتى أناقش.

حتى اللحظة، شاهدت مشهدا من المسلسل، لم أستطع إكماله: كان المشهد الذي يلقي فيه درويش قصيدته الأخيرة (لاعب النرد)، التي صارت أكثر قصائده انتشاراً وتأثيرا، والتصقت بذهن الذين أحبوا شعره، وربما كانت أكثر قصائد الشعر العربي حضورا في التسجيلات التي يحتفظ بها المتابعون.

لم يكن الأداء التمثيلي قريبا من درويش، ولم تكن اللقطات المرافقة لامرأة (تتأوّه) تليق بالشاعر ولا بالموقف. ولم أستطع أن أكمل المشهد.

حتى في حياة درويش، ورغم كلّ الدلال الرسميّ وشبه الرسميّ الذي منح له (ولا أعني هنا شعبيّته لدى الناس، فقد كانت طبيعية)، كنت أشعر، وأصارحه، بأن هناك من يستغلّ نجوميّته وموقعه، لدرجة أنه كان يوضع في واجهة نشاطات لا يكون راضياً عنها، خجلاً (وكم كان خجولا!) أو مجاملة لصداقة، على قلة ما كان يجامل.

في رحيل درويش، تحوّل الأمر إلى تجارة عامة وخاصة، على كثير من الأصعدة. ويمكن القول إنه ما يزال كذلك، في أمور يجري استثمارها. في رحيل درويش، تظاهر باللوعة من كانوا يقاطعونه، وبالحبّ من لم يلتقوا به، وبالصداقة من كان يحتقرهم، ولا يخفي ذلك عن أسماعهم، وبالحزن المتصاعد إلى حين، من كانوا يعتبرونه من مؤسساتهم الخاصة.

حين جاء وقت الدفاع عن حضور درويش في غيابه، لم يكن هناك أحد. عندما حاولت أن أتابع خطّ سير المسلسل، ومدى اهتمام من بكوا ذلك الغياب، اكتشفت أن أيا منهم كان يستطيع أن يوقف مهزلته المتسارعة، قبل أن تنجز. أي اعتراض من مسؤول، أو من شقيق، أو من كلّ من تبنّى الحياة بعد الموت، كان بإمكانه أن يعطّل، فالشخصية العامة لا تكون عامة بشكل جذريّ، إلا بعد نصف قرن من الغياب، وهي تظلّ خلال ذلك، ملك أهلها (بالمعنى الشامل للكلمة)، كما أن الحديث عن غياب (ربما كان مقصوداً) لقانون حديث ينظّم الملكية الفكرية، غير صحيح، لأن القديم يكفي، ولأن همسة واحدة كانت تكفي لتعطيل المشروع، فالحديث لا يدور عن شخصية عابرة؛ إنه يدور عن محمود درويش.

حين كتب محفوظ عبد الرحمن مسلسله عن (أم كلثوم)، وهي شخصيّة عامة، وكتب المسلسل بعد سنوات من رحيلها، عرفت منه أنه اضطرّ إلى إخفاء بعض الأحداث الهامّة في حياتها، وإلى التحايل على أحداث أخرى، (دون أن يخلّ بالدراما بالطبع)، لأن ورثتها (وهم أدنى قرابة من ورثة درويش)، كان بإمكانهم أن يوقفوا العمل.

لكن درويش، بعد أن استنفد استثمار وجوده وغيابه، وعلى الرغم من أنه كان حادّاً إلى درجة الاستفزاز في الدفاع عن كرامته الذاتيّة، لم يترك وراءه من يدافع عنه، دفاعاً غير استثماريّ، وخصوصا بين أولئك الذين يدّعون وراثته، شعرياً أو غير ذلك.

محمود درويش، القامة العملاقة في تاريخنا، وفي أدبنا، وفي الشعر العربيّ والعالميّ، لم ينجب سوى بعض المستفيدين، الذين لا يملكون في تطلعاتهم غير "ذاكرة للنسيان"!.

عن الأيام

مسخُ الغائب وتسخيف الحاضر

«قل للغياب نقصتني..»

توفيق وصفي

أتفق مع معلمي الأستاذ وليد أبو بكر في صعوبة متابعة مشهد كامل لمُشخّص الراحل الكبير محمود درويش، وفي استهجانه غياب القادرين على تغيير المشهد أو الاعتراض عليه عن المشهد الكلّي المُثير للارتباك.

والله لم أتمكن من متابعة أكثر من دقائق من مسلسل في حضرة الغياب، وبضع شطرات دعائية منه خلال فواصل الإعلانات، كانت كافية لإثقال كاهلي وإغضاب ذائقتي الفنية، فلا النبرة المصطنعة ولا النظرات الدائخة ولا الإطراقة البدائية ولا النزق "الدلوع" ولا الحزن المُشتقّ من "التمسكن" ولا الانفعال الباهت الذي جاد به خيال الممثل تخص محمود أو تشبه ما يخصه منها، ولا داعي هنا لتوفر شرط معرفة محمود عن قرب لاكتشاف الفرق، فمقابلاته وأمسياته العامة والتلفزيونية أودعت في عقول محبيه معرفة كافية بملامحه الشخصية، فما الحال مع من يعرفونه بالتفاصيل.

النجم الراحل المتميز أحمد زكي نجح في تجسيد شخصية بعظمة وتاريخية عبد الناصر، بعد أن مضى على وفاة الزعيم الراحل نحو ربع قرن، وبعد جهد استغرق سنوات من دراسة الشخصية، واستيعاب كل الظروف التاريخية بأبعادها الدرامية، بل ومراعيا تحولات وعي الجمهور المصري والعربي.. هذا الـ "فراس إبراهيم" كان على الدوام عنصراً هامشيا في معظم الأعمال الدرامية السورية، ولم يدر بخلدي أن يكون هو من تنطح لهذه الشخصية، التي في رأيي ما زال مبكرا تحويلها إلى دراما تلفزيونية أو سينمائية، لكنها متطلبات التجارة وربما الطموح الجامح لممثل ثانوي!

ويسأل أحد المُستفَزّين من المسلسل عن الجانب القانوني والحقوقي، وعن الذي يمتلك حق عرض وتحويل الشخصيات التاريخية إلى أي شكل إبداعي، الأهل أم الشعب أم الدولة التي تعد هذه الشخصية رمزا من رموزها الوطنية الثقافية أو السياسية أو الرياضية؟

لست هنا مع تحريم التعرض لهذه النماذج بالسرد والنقد، لكنني لست مع الهزء بعمقها أو مسخها إلى مجرد أقنعة للراوي أو الممثل أو المنتج، تعكس رؤيته المنفردة للشخصية، بكل ما يكمن في هذه الرؤية من نرجسية ومكر، وربما حقد دفين!

اعتبر البعض أن ثمة وقاحة في مسخ الرموز، وآخرون شددوا على أنهم بشر، ليسوا آلهة أو أنبياء أو أولياء صالحين، وأن علينا ألا نخشى ولا نُحرّم تجسيد شخصياتهم دراميا.. لكنهم رموزُ شعب وقضية وعملية كفاحية لم تزل رحاها دائرة، والتعرض لهم يتطلب حرصا شديدا، وإلا تحولوا إلى مسوخ، كالذي فعله فراس وصحبه غير الأبرار برمز ثقافتنا الوطنية الكبير محمود درويش، محمود قامة لا يطاولها عمل كهذا.

نُقصف ونقتل ونحاصر كل يوم، من العدو وللأسف من الشقيق، بحجة أن محمود ليس لنا وحدنا، وربما يطلع علينا من يزعم أن أبو عمار ليس لنا وحدنا، فنجد من يسبقنا إلى تشخيصه وقص سيرته كما يريد ويشتهي، من يريد ألا يكون لنا شيء!

ليُعرض المسلسل، ولتراهُ جموع المشاهدين العرب ومن لديه جلَد على متابعته منا، وليكن محلّ نقد وتوضيح، لا ميدانا للمزايدة والتجريح.. المسلسل مليان مشاكل، لأنه كما قال الأستاذ الكبير محمود شقير أعد وأُنتج من أجل التربح على استعجال للحاق بموسم رمضان الدرامي، ومن حق الأحياء الذين يمتلكون ما يَضرب صدقية التفاصيل أن يعلنوا عما لديهم، أما الأموات فلا يُعلّقون!.

عن الأيام

حسن البطل

جاهدت لأبقي قلمي جانباً عن جلبة المسلسل.. لكنه منح "وتراً" غير زرياب "لكلمات مناسبات على وتر" كما قال صاحب الغياب، الذي تحدى الغياب قبل غيابه، وقال له: "قل للغياب نقصتني.. وأنا حضرت لأكملك"، وهذا جواب الشاعر عن سؤال الشاعر "من أنا لأقول لكم ما أقول لكم" في "لاعب النرد"..

اكتشفت أن معظم اللجابين لم يروا حياة الشاعر كما تجسّدت على الشاشة الفضية في ثلاثة أفلام تتراوح فنيتها بين الروعة، كما في فيلم توماس هوك "هوية الروح"، أو الركاكة كما في فيلم سيمون بيطون "الأرض تورث كاللغة"، وقد ظهر فيهما الشاعر صورةً وصوتاً. في الفيلم التسجيلي الثالث الفلسطيني لنصري الحجاج "كما قال الشاعر" تغيب الصورة، ويحضر الصوت وصدى الصوت. الصوت صوته في القاعات حيث أنشد، وصدى الصوت تولاه شعراء من كل شعب ودين وملّة، اثنان منهم "منوبلدن". فقط، ظهرت صورة الشاعر تسبح في جدول ماء صغير ورقراق.. وتسافر!.

تفاوت رأي المثقفين الفلسطينيين في تناول الفيلم – الروعة والفيلم الركيك، لكن فيلم الحجاج لم يلقَ ما يستحقه من ثناء بين مثقفي فلسطين، على الرغم من أن المخرج تعمّد إطلاقه في "العاصمة" رام الله، خلاف التقريظ والاستحسان الذي لاقاه خارج فلسطين.

في خمسة رمضانات متوالية سيطرت الدراما السورية، مع "باب الحارة"، على المتلقّي الفلسطيني والعربي.. وفي رمضان السادس سادت "الجلبة" بلاد سورية.. والدراما السورية كذلك، مع مسلسل "في حضرة الغياب".

قيل قديماً: "ما يجوز للشاعر لا يجوز لغيره"، وسأقول في هذه الجلبة الشديدة: "يجوز على الشاعر ما لا يجوز على غيره طالما رموزنا السياسية خاضعة للأخذ والرد، بينما تبقى "رموزنا الثقافية" منزهة ومبجلة.

وحده، فيلم "هوية الروح" عن قصيدة الشاعر النرويجي هنريك أبسن صعد بلغة السينما إلى لغة تليق بقصائد الشاعر. ليكن في المسلسل الهابط "ريتا" و"رهف" ليس كما كتب وأحس الشاعر، لكن كما في "ستريو تيب" الكاتب والممثل والممول (ألم يسخر الشاعر: "عاش المؤذن والممول والشهيد")!

لكن، في "هوية الروح" كانت قصيدة شاعرهم القومي هنريك أبسن وقصيدة شاعرنا القومي "جندي يحلم بالزنابق البيضاء". لم يفصح الشاعر عن اسم الجندي، الذي أفصح، بعد وفاة الشاعر، عن اسمه شلومو ساند.. وعن إحدى أمتن الدراسات الميثولوجية المستندة للمراجع الوافرة عن "اختراع الشعب اليهودي"، نشترك في التاريخ المتشابك تشابك المسننات، ونختلف وإياهم على ما هو أكثر بكثير من "الخلاف على مواعيد القيامة".

للرئيس عرفات قولة شهيرة لدى طرده من برّ الشام: "لي في دمشق ما لأي مواطن عربي"، وللشاعر القومي الفلسطيني والعربي "والأممي كذلك".

شعر في دمشق رفعها إلى ما فوق النشيد الفيروزي. استعار من بطرس الرسول وحي الهداية على "طريق دمشق"، وأكملها "دمشق الطريق".. كأنها رجاء أو نبوءة!.

قال سعدي يوسف، بعد دعم دمشق للانشقاق، عن عرفات: "لي وردة بين يديك قد حاولتها"، وقالها، وسط دهشة المنشقين في محفل صغير بدمشق، لكن محمود درويش ألقى قصيدته عن دمشق في الملعب البلدي لكرة القدم، ولاحقاً في مدرج جامعة دمشق، الذي تحدث فيه بشار الأسد بخطاب ثانٍ بعد خطابه أمام "مجلس الشعب".

دمشق الشعب والنظام يحبّان الشاعر، ويختلفان على كراهية القائد: أعرف أن كاتب السيناريو حسن م. يوسف يحب الشاعر (هو سألني إنترنتياً سؤالاً عابثاً: "من أنتم أيها الفلسطينيون؟" أجبته: "نحن شعب محمود درويش"، لكنه كتبه قبل الدراما السورية من درعا إلى حلب، وسابق الوقت ليكون المسلسل هو "الدراما السورية" الجديدة!.

استلبس الممثل والممول قامة الشاعر، وصوته أيضاً. لماذا لم يكتف بصورة الشاعر، تاركاً صوته للشاعر. ههنا كانت السقطة المريعة. مسموح لشعراء فلسطينيين وعرب وعالميين أن يقرؤوا ما شاؤوا من شعر الشاعر، ولو مترجماً.. ولا يجوز للممثل والممول مثل هذا. المفتي قد يفتي أغنية لمغنٍ آخر.

مع ذلك، عابوا عليه سخفه وركاكته و"البيزنس"، لكنني لا أعيب عليه شجاعته الحمقاء.. كأنه حاول صعود الجبل بالقبقاب.

"قل للغياب نقصتني.. وأنا حضرت لأكملك". إن النقصان هو ما يعطي معنىً للوجود..

عن الأيام

محمود درويش .. سلام واعتذار !

«في حضرة الغياب» أيضاً وأيضاً

رائد الدبس

مسلسل "في حضرة الغياب" عن حياة الشاعر محمود درويش، الذي يجري عرضه على فضائيات عربية من بينها فضائية فلسطين، شكّل حادثة كاشفة دالّة على كثير من الظواهر في حياتنا الثقافية العربية والفلسطينية. أولى تلك الظواهر هي ظاهرة الرداءة في مستوى الكثير من الأعمالِ الفنيةِ الدراميّة العربية. وقد شكّل هذا المسلسل تجسيدا فجّاً لها، بوصفه عملاً دراميّاً يتسم بالركاكة والعجز عن مقاربة حياة الشاعر – الإنسان من ناحية، وإرثه الثقافي العظيم من ناحية أخرى.

التسرع في إنجاز هذا العمل، بالإضافة إلى عجز الممثل عن مقاربة شخصية الشاعر وطريقته في إلقاء الشعر، كفيلة بفضح العمل وإظهاره على حقيقته كعمل فنيّ رديء، لا يرقى إلى مستوى قامة ثقافية إبداعية عربية وعالمية مثل محمود درويش.

لكن تقييم العمل بحد ذاته لا ينبغي أن يتم بمعزل عن السياق العام الذي أنتجه. ففي السياق العام لواقع الحياة الثقافية العربية بما في ذلك الدراما العربية، ثمة الكثير من الرداءة المسيئة التي تدفع إلى القول أن عمل فراس إبراهيم ليس نباتاً شيطانيا ظهر بصورة مفاجئة، بل هو جزء من ظاهرة مكرّسة منذ سنوات طويلة.

لقد شكّل المسلسل تحديّا للجميع، وبقدر ما أظهر عجز القائمين عليه، وكشف عن ظاهرة الرداءة ضمن الأعمالِ الدرامية العربية، فقد كشف أيضاً عن عجزنا، أفراداً ومؤسسات، بسبب هشاشة وغياب قوانين حماية الملكية الفكرية في بلادنا، وكذلك غياب التشريعات التي يمكن أن تحمي الرموز الثقافية من العبث والتشويه والاستثمار التجاري. في هذا السياق، فإنه يمكن القول أن على مؤسساتنا الثقافية الفلسطينية وخصوصا مؤسسة محمود درويش، أن تبادر لفعل أي شيء يتجاوز حدود إصدار بيان، كأن تبادر إلى طلب سنّ قوانين وتشريعات لحماية حقوق الملكية الفكرية وحماية رموزنا الثقافية الفلسطينية، وليحمل هذا القانون المقترح، اسم محمود درويش.

في مواجهة رداءة المسلسل الذي شكّل منذ حلقاته الأولى استفزازاً ونوعاً من الاعتداء بعنف رمزيّ على الشاعر ومحبّيه، غلبت النزعة السجاليّة والمطالبة العصابية بمنع عرض العمل، وفي ذلك تعبير عن العجز أيضاً. حالة العجز هذه لم تتوقف عند حدود المطالبة بالمنع ، فهذه المطالبة في حدّ ذاتها هي حق لأصحابها، لكن حملة المطالبة ذهبت إلى حدود التعسف في استخدام هذا الحق، وبلغ التعسف ذروته عبر تحشيد أسماء للتوقيع على بيان المنع دون علم أو استئذان، كما حدث مع كاتب هذه السطور وآخرين. كما ذهب البعض بسجالات غير مجدية الى استحضار دماء شهداء الهوية الوطنية والثقافية الفلسطينية. واتخذت هذه الحملات والسجالات نزعة تشبه الطبيعة ذاتها التي انتجت المسلسل الرديء، وقد تجلّى ذلك في ممارسة نوع من العنف الرمزي بحقِ الجمهور المتلقي، فكما يمارس هذا العمل الرديء عنفاً رمزياً على الشاعر والجمهور المتلقي، تمّ التحشيد ضده في بعض الأحيان بطرق تعسفية غير نقدية وغير منتمية لمدرسة الشاعر، بالإضافة إلى أنها نصّبت نفسها حارساً لأملاك الغائب، أو حارساً لوعي وذائقة الجمهور الحاضر. يحضرني في هذا الصدد قول عالم الاجتماع الفرنسي الشهير بيير بورديو إذ يتحدث عن العنف الرمزي الذي يُمارس في الحقل الثقافي:" إن المثقفين هم بلا شك من بين أسوأ الناس تموقعا فيما يتعلق بوعي العنف الرمزي، وبالضبط ذلك الذي يمارسه النظام المدرسي، لأنهم تلقّوهُ هم أنفسهم بشدّة أكثر من متوسط الناس، ولأنهم يستمرون في الإسهام بممارسته".

مقابل الحملة التي اتسمت بممارسة أشكال متفاوتة من العنف الرمزي، كان ثمة اتجاه آخر مثّله مجموعة من المثقفين والكتاب الفلسطينيين والعرب الذي آثروا الانتصار لروح محمود درويش ولإرثه الإبداعي العظيم ومدرسة الحرية التي يمثلها، من خلال ذهابهم إلى معالجة نقدية ذات كفاءة عالية ابتعدت عن السجال والنزعة العُصابية. يمكن أن نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر مقالات الكتّاب: صبحي حديدي، حسن خضر، محمود شقير، وحسن البطل، وآخرون لا يتسع المجال لذكرهم.

فالانتماء لمدرسة الحرية والإبداع التي يمثلها محمود درويش، ينبغي أن يبتعد عن المبالغة أو التعصب أو الاستعراضِ الذي يبحث عن شعبوية زائفة.. وأن يكون المرء وفياً حقاً للشاعر ولإرثه الثقافي العظيم، يعني أن يمتلك مثله تواضع ونزاهة وصدق الكبار.. وأن ينشر هذا الإرث العظيم بلا كلل أو ملل.

محمود درويش.. سلام لروحك واعتذار عن كل ما قد أصابها من جراح، واثقلها بحبّ قاس وعنف رمزيّ كنت تنأى عنه وأنت بيننا، فكيف بمثله وأنت في حضرة الغياب؟!

وأما قبل وبعد، سنظل نردد معك:

يا أيّها المتفرجِون، تناثروا في الصمت،

وإبتعدوا قليلاً عنه كي تجدوه فيكم، حنطةً ويدينِ عاريتيْن،

وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيّتَه، على الموتى إذا ماتوا،

وكي يرمي ملامحهُ على الأحياء إن عاشوا..

عن الاتحاد

راسم المدهون

ما شاهدته حتى اللحظة من مسلسل «في حضرة الغياب»، يكفي للحكم بفشله وفشل صانعيه في مقاربة سيرة الشاعر الراحل محمود درويش بصورة إيجابية، بسببٍ مغالطات عدة، ولكن أساساً بسبب تدن في المستوى الفني الذي تحقق به العمل. هو بمعنى ما محاولة فاشلة أساءت للشاعر الراحل مثلما أساءت لفكرة تأسيس علاقة صحية بين الدراما كفن بصري، وبين الإرث الثقافي والإبداعي العربي عموماً.

مع ذلك أجد نفسي غير عابئ بالدعوات الكثيرة لوقف عرض المسلسل التي يطلقها مشاهدون غيورون على محمود درويش وتجربته بالتأكيد، وعلى رمزيته في الحياة الفلسطينية والعربية عموماً. موقفي ينحاز للحرية أولاً، ثم لحقيقة راسخة لا يعتريها اهتزاز عندي، وهي أن العمل الفني والإبداعي الرديء لا يمكنه أن ينتصر على وهج الإبداع ولا أن يقلّل من قيمته، ومن أراد أمثلة عملية، نحيله الى عشرات الروايات العظيمة التي تحققت في السينما والتلفزيون في صور رديئة لم تستطع أن تنتقص من قيمتها كقمم إبداعية شامخة ظلت تعاد طباعتها عشرات المرات، وتحظى بقراءات جديدة من أجيال جديدة.

قيمة محمود درويش الأساسية هي في تجربته الشعرية الساطعة والبهية، وهذه لا أظن أنها ستتأثر بعمل تلفزيوني فشل في مقاربتها أو التعبير عنها، فالفشل كان حليف التجربة التلفزيونية التي تناولت من قبلُ سيرة الراحل نزار قباني والعظيم أبو الطيب المتنبي، وإن كنا نعترف بأن رداءة «في حضرة الغياب» أوضح وأكبر.

كنت أتمنى بالطبع أن يتم إعداد «في حضرة الغياب» بجدية أعلى، وبأدوات فنية أرقى، وكنت أحد الذين كتبوا بإكبارٍ عن ذلك على هذه الصفحات، لكن هذا يبدو اليوم كلاماً متأخراً جداً لا يقدم ولا يؤخر.

هل لا تزال هناك فرصة لعمل تلفزيوني حقيقي عن محمود درويش؟

تجربة «في حضرة الغياب» لا تلغي هذه الفرصة، إن لم أقل إنها تحرّض عليها، ولكن بهدوء هذه المرّة، وبعيداً من ضغط موسم العروض الرمضانية، فشخصية بحجم محمود درويش تسمح بمعالجتها درامياً أكثر من مرة ومن خلال أكثر من رؤية وزاوية نظر.

عن الحياة

«في حضرة الغياب» ومجدولين حسونة والمثقّف العربي

هاني المصري

غداةَ تأسيس السلطة الفلسطينية، صدر قرار من مجهول - إرضاءً للرئيس الراحل ياسر عرفات - بمصادرة ومنع توزيع كتاب الراحل إدوارد سعيد الذي تناول فيه اتفاق أوسلو، وتعرض لعرفات بالنقد اللاذع.

لم يكن في أراضي السلطة عند صدور القرار سوى نسخ قليلة من الكتاب، لكنّ قرار المنع أدى إلى تهافت الكثيرين على شرائه والحصول عليه من عمان والقدس ومن كل مكان يمكن الحصول عليه. وساهمتُ أنا وآخرون، حيث كنت حينها موظفًا في وزارة الإعلام، بإلغاء قرار المنع.

تذكرت هذه الحادثة أثناء متابعتي للحملات المتبادلة بين من يريد منع بث مسلسل «في حضرة الغياب» الذي يروي سيرة الشاعر الراحل محمود درويش، لأنه - حسب رأيه - ذو طابع تجاري يسيء إلى صورة العظيم درويش، ولأن حرية الإبداع لا تعني الإساءة وتشويه الحقائق وتزييف الوعي، مستغربًا تورط تلفزيون فلسطين والفنان مارسيل خليفة والكاتب حسن يوسف والمخرج نجدت أنزور في هذا العمل السطحي المزيف، وبين من اعتبر المطالبة بوقف بث المسلسل تجسيدًا لعقلية المنع والإقصاء وتشبهًا بالدكتاتوريات؛ فالمنع لا يسهم إلا في زيادة الإقبال عليه (فالممنوع مرغوب)، معتبرًا أن المطالب بوقف المسلسل لا يثق بذائقة الناس وقدرتهم على التمييز بين الغث والسمين، كما لا يحترم درويش كما يدعي، بل يمارس الاستبداد الثقافي في فلسطين، ومحاولة احتكار إرث الشاعر العظيم الذي تجاوز حدود فلسطين، وفرض الوصاية على ما يراه الناس.

ورغم وجاهة الملاحظات التي أبديت على المسلسل مثل «التلفيق» الوارد في الحلقات الأولى، حسب ما أشار أصدقاء درويش المقربون، و«السرعة الشديدة» في إنتاجه، حيث لم يمض وقت طويل على رحيل درويش يتيح فرصة للتأمل والبحث وإخراج عمل جيد، واختيار ممثل مثل فراس إبراهيم لا يناسب القيام بدور درويش، لأسباب تتعلق بشكله غير الملائم لشخصية درويش ومستوى أدائه وتمثيله، وعدم الرجوع بشكل لائق إلى أصدقائه وعائلته ومؤسسة محمود درويش المعنية بإحياء تراثه وتخليده، إلا أن الحل لا يكون بوقف بثه، بل بالمطالبة بمقاطعته، بحيث يكون قرارًا شخصيًا لكل فرد، وبتشكيل لجنة تحقيق ذات صلاحيات للتحقيق في كيفية اتخاذ قرار ببث مسلسل رديء. فهناك فرق بين المطالبة بمنع بثه والمطالبة بالمحاسبة على شرائه لبثه، خصوصًا أن الرئيس الأعلى لهيئة الإذاعة والتلفزيون هو في الوقت ذاته عضو نافذ في مؤسسة محمود درويش، وأحد أصدقاء درويش المقربين.

هل صحيح أن الرئيس محمود عباس هو من اتخذ القرار ببث المسلسل؟ إذا كانت الإجابة نعم، فما علاقة الرئيس ببث المسلسلات؟ ألا يفترض وجود لجنة تحكيم ثقافية فنية قانونية مخولّة بالاطلاع على الأعمال الفنية قبل اتخاذ قرار ببثِها، استنادًا إلى معايير فنية ووطنية معلَنة ومُتعَارَف عليها؟

وهل صحيح أن المسلسل عرض على أعضاء من مؤسسة محمود درويش وغيرهم، كما قال أحمد (شقيق درويش) والممثل فراس إبراهيم، ولم يتحرك أحد جديًا لمنع المسلسل؟ أليس من واجب المؤسسة التحرّك لمعرفة ما يدور حول إنتاج مسلسل درويش والتأثير عليه، حتى لو لم يعرض عليها بشكل رسمي؟ وهل تحركت المؤسسة بالمستوى الذي تفرضه خطورة عرض مسلسل «يسيء لدرويش إساءة بالغة» على حد قول المؤسسة؟

كما لا يستطيع الممثل فراس إبراهيم رفض إدانة مسلسله؛ لأن مؤسسة محمود درويش لم تفعل شيئًا منذ تأسيسها سوى إدانة المسلسل، أو لأن على من يدينونه، الالتفات للاحتلال والاستيطان والعدوان والحصار الإسرائيلي، فكأن هناك تناقضًا بين النضال ضد الاحتلال ومن أجل تحقيق الحرية والعودة والاستقلال، وبين الدفاع عن الديموقراطية وكل فن جميل وراق يغذي الذائقة الإنسانية ويرفض كل من يسيء إليها.

وتكمن الخطورة بمطالبة مثقفين، يفترض أنهم حراس الحرية والتعددية والتنوع والديموقراطية، بمنع عمل ثقافي سواء لعدم اتفاقه مع رؤيتهم، أو لأنه هابط. فالتساهل مع أي منع سيشكل سابقة قابلة للتكرار مع كل عمل لا يناسبهم أو لا يناسب غيرهم.

وليس مقبولا أيضًا محاكمة المسلسل فنيًا بشكل موضوعي متكامل قبل اكتمال عرضه، أو لأن بعض ممثليه، كالممثل الرئيسي، يقف في صف النظام السوري ضد الثورة السورية التي تعبر عن تطلعات الشعب السوري المشروعة. فيمكن المطالبة بمقاطعة المسلسل أو الممثلين المناوئين للثورة كما يحدث في مصر حاليًا، حيث برزت حملات مقاطعة ضد فنانين وقفوا وما زالوا يقفون مع نظام حسني مبارك حتى بعد تنحيته عن السلطة.

إن تجربة عشر سنوات في وزارة الإعلام والإدارة العامة المعنية بالمؤسسات الإعلامية، علمتني أن ما يمكن منعه فقط هو الشيء الذي يجسد خيانة وطنية مكشوفة لا تقبل الجدال، أو العمل المرفوض كليًا من الإجماع الوطني لا من الأغلبية أو من قطاع من المثقفين أو غيرهم مهما بلغ كبره.

بما أن الشيء بالشيء يذكر، اطلعت، وأنا أتابع الردود على بث المسلسل «في حضرة الغياب»، على تقرير الهيئة الفلسطينية لحقوق الإنسان، الذي يسجل الانتهاكات التي تعرض لها الإنسان الفلسطيني على يد الاحتلال، وهذا طبيعي رغم أنه مرفوض، وعلى يد السلطتين في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث أشار التقرير بالدلائل إلى استمرار الاعتقال السياسي والتعذيب، وإعدام بعض المعتقلين خلافًا للقانون، أي من دون مصادقة الرئيس، وعدم تنفيذ قرارات محكمة العدل العليا.. إلخ.

استوقفني التقرير للتفكير بتقصير المثقفين والإعلاميين والقانونيين والأكاديميين ورجال السياسة والدين ومؤسسات المجتمع المدني والاتحادات والنقابات في التحرك الفاعل ضد كل أشكال الانتهاكات، حيث نكتفي بإدانة واستنكار المساس بالحقوق والحريات العامة، ونمضي في حياتنا وكأن شيئًا لم يكن.

فالمثقف الفلسطيني لا يمكن أن يكون ديموقراطيًا وصاحب موقف وذائقة فنية في ما يتعلق بمسلسل تلفزيوني، ودكتاتوريًا أو لا مبال أو مكتفيًا بموقف «رفع العتب» في ما يتعلق بالقمع الممارس في بلده أو السلطة الخاضع لها، إذ نلاحظ ظاهرة انتقاد حاد ومتبادل للقمع في غزة من فريق، وللقمع الممارس في الضفة من فريق آخر، أما الأصوات التي تمارس النقد إزاء كل أنواع القمع أين ما مورست فهي قليلة ومتهمة بالوسطية، فإما معي أو ضدي.

وهذا يذكر بظاهرة الانفصام التي انتشرت مؤخرًا بين الكثيرين من المثقفين العرب الذين يبدون ثوريين وديمقراطيين جدًا حين يرتبط الأمر بالثورة السورية أو الليبية، بينما لم يحركوا ساكنًا عند اندلاع الثورة المصرية، بل إن البعض ما زال يتباكى على نظام مبارك السابق.

والأنكى والأمر أن هؤلاء المثقفين الديموقراطيين جدا يتجاهلون ما يجري في بلادهم، خصوصًا البلدان التي تضم كل أشكال الفساد والتبعية، ولم تعرف أيًا من أشكال الحرية والديموقراطية، لدرجة أن المرأة في بعضها لا تستطيع قيادة السيارة، ومحرومة تقريبًا من كل شيء، ولا ينبسون ببنت شفة حول ذلك.

في الختام، أتطرّق إلى ما حدث مع الصحفية مجدولين حسونة، التي لا أعرفها، لكنني علمت بتعرضها للملاحقة من جهاز الأمن الوقائي في نابلس، على خلفية تغطيتها ظاهرة الاعتقال السياسي والتظاهرات التي نظمت للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

وقد قام جهاز الأمن الوقائي باستدعائها عبر الاتصال التلفوني، ولم تلبّ الاستدعاء، ليتم استدعاؤها مرة أخرى بكتاب، وحين رفضت ذلك، اعتقل شقيقاها للضغط عليها، واكتفت نقابة الصحافيين بالإدانة والشجب والاتصال بأحد ضباط الجهاز الأمني للاستفسار والاحتجاج.

لا يمكن التمتع بالحرية حقًا إذا كانت فلسطين تحت الاحتلال، وإذا كان العديد منّا في الضفة الغربية وقطاع غزة يُعتقلون أو يُمنعون من السفر، او يُفصَلون من وظائفهم أو لا يُعينون لأسباب سياسية من قبل السلطتين الواقعتين تحت الاحتلال.

ومن يعتقد أن هذا أمر صغير أو ناتج عن الانقسام فقط سيندم لاحقًا حين يعلم أنه «أُكِل عندما أُكِل من سِبقه»!

عن السفير

في حضرة الغياب.. فضيحة

يوسف ضمرة

من المعيب أن يتحول اسم محمود درويش، الشاعر الأبرز والأهم في التاريخ العربي المعاصر، إلى إعلان تجاري مبتذل، لا هدف من ورائه سوى التربح والكسب غير المشروع.. نعم، غير المشروع. فلا يحق لأي كان، ممثلا أو مخرجاً أو منتجاً أن يتصرف في هذا الرمز العربي والإنساني الكبير وفق هواه، فقط لكي يجني أرباحاً مالية.

ما نراه على الشاشات في رمضان، تحت عنوان « في حضرة الغياب » ليس سوى عبث صبياني بهذا الرمز الكبير. أجل، يجري استغلال اسم محمود درويش بلا حرفية فنية حتى، فلا الإخراج ولا السيناريو ولا التمثيل كلها تمكنت من التقاط شيء، ولو بسيطاً، من شخصية محمود درويش، ومن قيمة درويش، وقيمة شعره وأهميته.

يستسلم الممثل فراس إبراهيم لمسحة الأسى التي تصل إلى الميلودراما في الحلقات التي عرضت، ويبدو أنه لايزال مسكوناً بذلك الدور الجميل الذي لعبه أمام أمل عرفة ذات يوم، ولم يتمكن من التفريق بين محب مريض في ذلك الدور، وبين شاعر صاحب مشروع ثقافي ومعرفي كبير، وصاحب أنفة وكبرياء عز نظيرهما بين الشعراء والكتاب العرب.

يعتقد السيناريست والمخرج والممثل، أن هذه « المسكنة » التي يبدو عليها درويش، فراس إبراهيم، في علاقاته وفي رؤيته للحياة، ستحقق تعاطفاً إنسانياً خارقاً، ولكن محمود درويش ليس كذلك، فلا هو باحث عن هذا التعاطف المجاني، ولا هو يتاجر بحالته الشخصية والصحية كي ينال الرضا من أحد.

من نراه أمامنا لا يمت لمحمود درويش بصلة، ولا يقترب في مفهومه للحياة من مفهوم درويش، ولا يحمل في داخله رؤية درويش الثاقبة والساخرة للحياة، تلك الرؤية التي جعلت من محمود درويش متفرداً في قدرته على صياغة الحياة، كما يراها هو، لا كما نعرفها نحن.

المشكلة هنا، هي أننا أمام عمل درامي نمطي، بينما لم يكن درويش شخصية نمطية على الإطلاق، بل كان شخصية نموذجية عالية، متفرداً وذاهباً وحده في تشكيل الحياة كما يرى أو يحب أو يعتقد، ولهذا كان في شخصيته ذلك الغموض الساحر والمميز، الذي انعكس في قصائده كلها، وفي تفاصيل حياته حتى الموت. فهو حتى في اختياره الولايات المتحدة لإجراء عمليته الأخيرة في القلب، كان يعرف ماذا يفعل، وكان يتصرف منطلقاً من كبرياء الشاعر العظيم الذي لا يبحث عن شفقة أو عطف من هنا أو هناك، لكن المسلسل هبط بمحمود درويش إلى الدرك الأسفل من الرداءة الفنية، وذهب إلى أقصى حالات التشويه.

ثمة تسرع واضح في الكتابة والتحضير، وكأن رحيل درويش كان صفقة تجارية مفاجئة، وعلى التجار أن يحصلوا عليها بالسرعة الممكنة، فمسلسل كهذا، كان يلزمه هيئة استشارية من معارف درويش؛ أصدقائه وزملائه وناقديه وذويه ورفاقه مذ كان في فلسطين قبل خروجه الأخير. وشاعر كمحمود درويش، معروف لدى الكثيرين في سورية ولبنان وفلسطين والأردن ومصر وحتى فرنسا، وليست ثمة طرق مقفلة أمام صانعي المسلسل، لكي يتعرفوا إلى شخصيته الحقيقية، ولكي يفهموا، ولو جزئياً، بعض ملامح جوهر درويش، لكنهم أبوا إلا أن يحولوه إلى بطل هندي، ولم ينقصه سوى توأمه الضائع، الذي يظهر عادة في نهاية الفيلم، ومن يدري، فقد يحدث هذا أيضاً في نهاية المسلسل، وتكتمل الفضيحة.

عن الامارات اليوم

"في حضرة غياب" المثقّف

سليم البيك

أحسستُ بأن فلسطين كلّها مثقفون، بل وناشطون في كونهم مثقفين، حين قرأت خبراً عن بيان لمثقفين يدين بيان مثقفين آخرين داعين لوقف مسلسل "في حضرة الغياب" والذي يصوّر سيرة الشاعر محمودٍ درويش. ولمن لا يعلم، في فلسطين –ورامِ الله تحديداً، ودوار المنارة وشارع ركب فيها، أو (طبعاً) حيفا ومقهى فتّوشٍ فيها- يكفي التلفّظ بـ "محمود درويش" ليكون المرء مثقفاً، بل وناشطاً، وإن حالفنا الحظ سيهيل علينا بعض آرائه النقدية. ومؤخراً بات يلزم لكسب هذا الاعتراف "الثقافي" حساب على الفيسبوك، وفي مرحلة متطوّرة تجميعاً للستاتوسات في مقال ينشره أحد المواقع الالكترونية المنفلشة هناك، ليصبح "المثقّف" "كاتباً".

الآن، والحالة الفلسطينية قد تعرّضت للنشوء الفقّاعاتي لهذا الكم من المثقفين والكتّاب الجدد ممن يكتفون بالفيسبوك كمورد معرفي (طبعاً لا أعمّم)، فلا بدّ أن ينخرطوا جميعاً في ما قد يرونه الواجب الوطني الثقافي (وردّ الجميل) تجاه أوّل ما أعطاهم قناعتهم واكتفاءهم الذاتي بحالتهم (أو هالتهم) الثقافية، وهو اسم محمود درويش. الحالة التي تنتؤ كلّما أثار اسم درويش شأناً ثقافياً، الآن يثيره مع المسلسل المذكور.

المشكلة تكمن حين يأتي الموقف الثقافي عن ثقافة شعبية دون أية خلفية معرفية لا يكون موردها الأساسي التلفزيون والفيسبوك ودوّار المنارة وإحدى صحف رام الله الأشبه بنشرات محلّية، والأسوأ، دون أي عقلية ديمقراطية في تلقّي (لا "بناء" حتى) هذا الموقف.

مشكلتي أكثر مما هي مع المسلسل المهزلة، هي مع ردِ الفعل الثقافي الفلسطيني تجاهه، فلنتّفق أولاً بأن المسلسل انتهازي، تجاري، سطحي، مغالط، سخيف، ركيك، ولا يستحق المشاهدة، سأترك الكتابة عن ذلك لنقّاد في شعر وسيرة درويش، وفي الميديا والدراما تحديداً، وأتمنى فعلاً أن يُكتب نقد جاد للمسلسل دونه لن يُثبتَ لا مقال رأي كهذا ولا "الستاتوس الجمعي" لمثقفين فلسطينيين جدد ولا معركة البيانات والبيانات المضادة حول دوّار المنارة، فشل المسلسل.

مشكلتي الأساسية إذن هي مع رد الفعل الفطري الطارئ والمتأخر. قبل سنة ونصف (في فبراير ٢٠١٠) كتبتِ على هذه الصفحات مقالي "فليعبثوا بعيداً عن سَكينة درويش" منادياً عائلة درويش وأصدقاءه المقرّبين بأن يفعلوا شيئاً حيال المسلسل، طارحاً آرائي الخاصة في رفضه قبل البدء بتصويره، ومتشكّكاً من السيناريو ومستزنخاً الممثل.

وكما قلت لأصدقاء: أخاف أن يتسلّل شيءٌ من زناخته (اللا مُطاقة عندي) إلى شخصية درويش الكاريزماتيّة في أذهاننا.

أما الآن، وقد بدأ المسلسل عروضه، فإني أرفض بشدّة المطالبة بوقفه، من مبدأ أن للعمل الفنّي (لنفترض أنه عمل فني مهما بلغت منه المهزلة) الحق في التعبير الحر والعلني عن ذاته، كما لغيره الحق في نقده دون المطالبة بمصادرته.

ألقي بلومي أولاً على عائلة الشاعر ومؤسسة محمود درويش في فلسطين لعدم أخذ الموضوع على محمل الجد منذ البداية، ثم على مارسيل خليفة الذي لن يجد ما يبرّر به تلحينه (التواطئي) لموسيقى المسلسل، ثم المثقفين، فلسطينيين وعرباً، (بل وربّما ألومهم قبل الجميع) ممن تركوا المعارضة (الخفيفة) للمسلسل قبل عرضه، لحيطان الفيسبوك، حيث يُطالَب الآن بشدّة بوقف عرض المسلسل، في موقف متطرّف قد يُعزى لحالة اللاموقف النسبية قبل غرّة رمضان إذ بدأ المسلسل حلقته الأولى. أخيراً ألوم تلفزيون فلسطين الذي تنطّح لعرض المسلسل.

أما بالنسبة للمثقفين الجدد، مثقفي الفيسبوك وتلفزيون فلسطين (مجدّداً، لا أعمّم)، سأقترح التخلّي عن فكرة المصادرة، ومقاطعة المسلسل، والأهم، قضاء ولو نصف وقت عرضه في قراءة "في حضرة الغياب"، وكتبٍ غيره لدرويش ولغير درويش، وإن استُصعب أمر القراءة! فلا بأس في مشاهدات لأمسيات درويش الشعرية عبر اليوتيوب، لكن أرجوكم، دون إدراجها على الفيسبوك، لأني أمقت هذا الحب الموسمي والاهتمام الطارئ والتطرّف في كليهما، كلّما تعلّق الأمر بمحمود درويش.

غرافيك: أمجد غنام | خاص رمان